

فخري قعوار .. والأدب الإسلامي

بقلم / عبده زايد

محرر الكتاب في التعريف به على أن قال : كاتب وباحث من مصر^(١) ، وقد نشر المقال في صحيفة «الرأي» الأردنية في ٢٠/٨/١٩٧٦ م.

هذا هو كل ما كتبه أدباء مصر ونقادها عن أدب الأستاذ فخري قعوار ، وإذا كان المقال الأول قد كتب تشجيعا لشباب يحاول أن يضع قدمه على طريق الأدب (كان الأستاذ فخري قعوار في العشرين من عمره في ذلك الوقت) فإن المقال الثاني لم ينشر في مصر ، فضلا عن أنه يرجع إلى عشرين عاما مضت ، قبل أن يصل إلى المكانة الأدبية التي وصل إليها الآن .

فكيف يتعرف عشاق الأدب في مصر - وأنا واحد منهم - على الأديب فخري قعوار ؟! وكيف يتعايش مع أدبه ؟! وكيف يتفاعل مع إبداعه ؟!

وليس الحال في باقي أقطار الوطن العربي بأفضل منه في مصر ؛ فأكثر ما كتب عنه خارج الأردن كان بأقلام لبنانية (خمسة مقالات لأربعة كتاب) وعراقية (أربعة مقالات الأربعة كتاب) ، وسورية (مقالان لكاتبين) ، على أن بعض هذه المقالات نشر في الأردن أيضا ، وفي معظم أقطار الوطن العربي الكبير لم يكتب عنه شيء ، مع أنه الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب لدورتين متتاليتين . أليس في هذا تجسيد لأزمة التواصل الثقافي العربي ؟!

والذي يبدو أن أكثر من يكتبون عن الأستاذ فخري قعوار كانوا ينظرون إليه علي أنه أديب أردني أكثر منه أديبا

عرفت الأستاذ فخري قعوار أميًّا عاما للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ، قبل أن أعرفه أديبا يمارس كتابة القصة القصيرة منذ ثلث قرن تقريبا ، ويكتب المسرحية على قلة ، ويمارس الكتابة للأطفال ، وقبل أن أعرفه صحفيا له زاوية يومية ثابتة تحت عنوان «شئ ما...» منذ ما يزيد على عشرين عاما ، تنقل بها بين ثلاث صحف أردنية هي : الأخبار والرأي والدستور ، وقبل أن أعرفه كاتبا لمسلسلات تليفزيونية ولبرامج إذاعية .

وربما كان ذلك راجعا لأزمة التواصل الثقافي في وطن العربي بوجه من الوجوه ؛ فمدى علمي أن الحركة النقدية في مصر لم تلتفت إلى الأستاذ فخري قعوار بما تناسب مع تاريخه الإبداعي ، على كثرة تعدد المنابر الثقافية وتنوعها ، وربما كان احتكاكه بالأدباء والنقاد في مصر واحتكاكهم به إداريا تنظيما من خلال أمانته للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب أكثر منه احتكاكا أديبا نقديا .

والدليل على ذلك أن الكتاب الضخم الذي حرره الدكتور إبراهيم خليل الأستاذ بالجامعة الأردنية تحت عنوان : «فخري قعوار - ثلاثون عاما من الإبداع» والذي سمح حوالتي مئة مقالة ودراسة لا تجد فيه إلا مقالين لكاتبين مصريين ، أحدهما للأستاذ الأديب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله ، وقد نشر في مجلة القصة المصرية مدد يونيه ١٩٦٥ وذلك تعليقا على قصته «حزن ثلاثة جال» التي نشرت في عدد سابق من المجلة نفسها .

والثاني لكاتب مصري اسمه ثروت شعراوي ، لم يزد

أزمة تواصل في الثقافة العربية

وقبل أن يتعجب من هذا النشاط تعجب من وجود رابطة للأدب الإسلامي «أقول قولي هذا وأنا أقرأ في الصحف أن هناك رابطة للأدب الإسلامي» .

ووجه العجب أنه - بذاته وصفته - يجهل كل هذا «أي أن الرابطة المذكورة ذات اتساع وانتشار وامتداد عالمي ، وأنا العبد الفقير إلى الله لا يعرف شيئاً عنها ، أو عن أنشطتها ، أو عن إبداعات المنتسبين إليها !» (التعجب منه أيضاً) .

وهذا وجه أكثر تجسيدا لأزمة التواصل الثقافي في وطننا العربي .

أزمة التواصل في الثقافة العربية :

إن القارئ العربي حينما يجهل أدبيا كبيرا مضى عليه في حقل الإبداع حوالي ثلث قرن يعد وجهها من وجوه هذه الأزمة .

وإن هذا القارئ حينما يجهل الوجه الأدبي لأمين عام اتحاد الأدباء والكتاب العرب يمثل وجهها آخر من وجوه هذه الأزمة .

ولكن أن يجهل من يقف على رأس هذا الاتحاد نشاط أدبيا واسعا لجماعة أدبية - أيا كانت هذه الجماعة - فهذا يمثل ذروة هذه الأزمة ؛ لأن هذا يعني أننا كأفراد وجماعات أدبية منكفئون على ذواتنا ، لا نري إلا أنفسنا ، ولا نحاول أن نتعرف على من حولنا ولو من باب الفضول وحب الاستطلاع .

ويزيد من تجسيد الأزمة أن الرابطة التي يجهلها أمين عام اتحاد الأدباء والكتاب العرب موجودة على أرض الواقع ، وليس في الأحلام ولا على الورق فقط ، منذ أكثر من عشر سنوات ، وأن نشاطها الأدبي في الندوات والمؤتمرات في الوطن العربي وخارجة شرقا وغربا لا تقل - إن لم تزد - على نشاط أي جمعية أو جماعة أدبية أخرى

عربياً ، وربما كانت هذه النظرة الإقليمية الضيقة سببا في محدودية انتشار أدبه على مستوى الوطن العربي ، وتفاعل النقاد والأدباء معه باعتباره أدبياً عربياً .

* * *

أما بالنسبة لي فقد حاولت أن أقرب من أدب الرجل وفكره ؛ فقرأت له المجموعة القصصية «أيوب الفلسطيني» التي صدرت عام ١٩٨٨ ، وغودجا من أدبه الساخر في «يوميات فرحان فرح سعيد» التي صدرت عام ١٩٨٢ ، وشيئا من أدب الأطفال الذي حظى بعنايته ، في «حديث مع أميمة» الذي صدر عام ١٩٩١ .

وإذا لم يتح لي أن أطلع على معظم ما كتب ، فقد أتيت لي أن أطلع على معظم ما كتب عن هذا النتاج في الكتاب الذي أشرت إليه سابقا «فخري قعوار - ثلاثون عاما من الإبداع» ، وقد صدر هذا الكتاب في ٦٦٠ صفحة من القطع المتوسط منذ شهور قليلة عن رابطة الكتاب الأردنيين - التي كان رئيسا لها لدورتين متتاليتين أيضا - بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان .

فخري قعوار يتعجب :

هذا هو الأستاذ فخري قعوار الذي أفسح للأدب الإسلامي مكانا في زاويته اليومية «شيء ما . . .» في صحيفة «الدستور» الأردنية ، وذلك يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١٤١٧ هـ ، ٢٨ / ٧ / ١٩٩٦ م ، العدد رقم (١٠٣٩٢) .

وكان الذي دفع الأستاذ فخري قعوار - إلى كتابة ما كتب هو ما نشر في الصحف الأردنية «أن رابطة الأدب الإسلامي ستقيم في عمان أسبوعا ثقافيا يحييه مكتبها الإقليمي بمناسبة زيارة الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، والدكتور أحمد محمد علي نائب رئيس مكتب البلاد العربية إلى مكتب الأردن الإقليمي» ! (التعجب منه) .

وفي غياب عدم المعرفة تكمن الأزمة !

على مستوى العالم العربي كله ، وأن منشورات مكتب البلاد العربية تصدر عن دار البشير بعمان ، حيث يقيم الأستاذ فخري قعوار ، وأن مجلتيها الفصلية التي تختم بهذا العدد عامها الثالث تنشرها مؤسسة الرسالة ببيروت ، وهي شقيقة دار البشير الكبرى .

أضف إلى هذا أن المكتب الإقليمي بالأردن قديم الوجود ، فعمره من عمر الرابطة نفسها ، وقد تعاقب على رئاسته ثلاثة من الأساتذة الجامعيين ؛ كان أولهم الدكتور محمود إبراهيم الأستاذ بالجامعة الأردنية وعضو مجمع اللغة العربية - متعه الله بالصحة والعافية - ، ثم الدكتور عودة الله منيع القيسي ، ثم الدكتور مأمون فريز جرار .

أضف إلى هذا أن من أعضاء الرابطة في الأردن من له صلة صداقة بالأستاذ فخري قعوار ، ومنه من كتب عن إبداعه وأدبه .

فهل يمكن بعد كل هذا أن تكون كلمة «أدب إسلامي» جديدة عليه حتى يضع أمامها علامة تعجب في عنوان المقال؟ وأن تكون الرابطة غريبة على مسامعه؟ وإذا كان هذا صحيحاً - ونحن لا نشك في صدقه - أفلا يكون عجباً وغريباً؟ ألا يمثل هذا ذروة أزمة التواصل في الثقافة العربية؟! .

نفي المعرفة... ونفي الوجود :

لكن الجانب الأهم من القضية - من وجهة نظري - تركز في السطور الأولى التي افتتح بها مقاله :

« ١ - لم أقرأ يوماً أدباً إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً أو ذبياً أو سيخياً أو غير ذلك من الآداب المنسوبة إلى الأديان .

٢ - ولم تشهد آداب العالم إبداعات وصفها مبدعوها أو نقادها بأنها تنتسب إلى دين من الأديان .

٣ - حتى الملحمة الكبرى التي وضعها دانتلي باسم «الكوميديا الإلهية» التي اتخذت من الجنة والنار واليمبوس مسرحاً لها ، لم يقل أحد إنها ملحمة مسيحية» [ترقيم الفقرات من عندي] .

ولو توقف الأستاذ فخري قعوار عند الفقرة الأولى من المقال لما كانت هناك مشكلة ؛ لأن نفي القراءة ، ونفي العلم والمعرفة بشيء ما لا يعني أن هذا الشيء غير موجود ، ويكون الإنسان صادقاً مع نفسه حين ينفي علمه بهذا الأمر أو معرفته به دون أن يتجاوز ذلك إلى نفي الأمر في ذاته ، ويدخل في هذا الإنصاف قوله في هذا الجانب : « ربما كان للقائلين بوجود أدب ينتسب إلى دين من الأديان وجهة نظر ، لكنني أعترف بأنني لم أطلع على شيء من هذا ؛ لأنه لم يقع بين يدي ، ولأن أحداً من هؤلاء لم يسع لإطلاعي عليه ، ولذلك فإنني لا أنتقص من وجهة نظر لا أعرفها ، وفي الوقت نفسه أقول : إنني لا أرى مسوغات لوجودها من حيث البدأ» .

وإذا كان الجزء الأول من هذا الكلام يمثل جانباً من الموضوعية والإنصاف - إنصاف النفس وإنصاف الآخر - فإن الجزء الأخير يصادر على الآخر قبل أن يعرف وجهة نظره ويحيط بها علماً ، حتى يكون الرفض على بينة وبصيرة .

لكن هذا الجانب المحمود الذي أنصف فيه نفسه ، وأنصف غيره ، يتنافى مع الفقرة الثانية ، التي تنفي أن تكون هناك آداب في العالم وصفها مبدعوها أو نقادها بأنها تنتسب إلى دين من الأديان ؛ ذلك أنه هنا لا ينفي



د. عودة الله القيسي



د. أحمد محمد علي

بل " الكوميديا .. " أدب كاثوليكي موجه

تنشأ عنه تصورات مختلفة ، يظهر أثرها في إبداعه الأدبي . ومن هنا يمكن أن يرد هذا الأثر الأدبي بسهولة إلى مصدره التصوري وينسب إليه .

في الدراسات الغربية :

لست أدري إذا كان الأستاذ فخري قعوار على صلة بالدراسات الغربية للأدب نقداً وتنظيراً وتاريخاً أم لا ، ولو كان على صلة بهذه الدراسات لأدرك أن نسبة الأدب إلى الأديان موجودة هناك بشكل واضح ، يستوي في ذلك أن تكون هذه الدراسات لأدياننا الشرقية ، وهو نهض بعبئه المستشرقون ، أو لأديانهم الغربية .

ففي النوع الأول نجد أن نسبة الأدب إلى دين من الأديان - وهو ما ينفي وجوده الأستاذ فخري قعوار - يحتل بعضاً من عناوين الكتب والبحوث والدراسات والمقالات ، من ذلك مجموعة الكتب التي أخرجها المستشرق الألماني جراف ما بين ١٩١٥ و ١٩٥١ عن الأدب المسيحية العربية ، وقد جاء أحدها في أربعة مجلدات (٢) .

ومنها الكتاب الذي ألفه المستشرق الإنجليزي شتروك عام ١٩٤٩ حول « تاريخ الأدب اليهودي العربي في القرون الوسطى » (٣) .

ومنها الكتاب الذي ألفه المستشرق الإيطالي ليفي دلافيد عام ١٩٣٢ . بعنوان : (الأدب العربي الإسلامي) (٤) .

ومن ذلك ما كتبه المستشرق الألماني الشهير بروكلمان عن : تاريخ الأدب المسيحية في الشرق (٥) .

ومنها ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن (الأدب الإسلامي التركي) (٦) .

ومنها ما كتبه المستشرق الأمريكي جرونباوم عن

معرفته أو علمه بشيء من ذلك كما فعل أولاً ، وإنما ينبغي أن يكون لهذا الأمر وجود . وهذا يعني أنه أحاط علماً بكل ما كتب عن هذه القضية على مستوى الآداب العالمية ، وانتهى إلى هذا الحكم . وإذا كان الرجل لا يعرف شيئاً عن الأدب الإسلامي ورابطته وهي بهذا النشاط والحيوية والحركة في الإبداع والتنظير والمؤتمرات والندوات والمناهج الدراسية ، وهي بين يديه ونصب عينيه ، وصوتها يدوي على مقربة من أذنيه ، فكيف يدعي أنه أحاط علماً بكل الآداب العالمية إبداعاً ونقداً ، ولم يجد أحداً من المبدعين والنقاد نسب أدباً إلى دين من الأديان؟! .

الآداب والأديان :

على أن وصف أدب ما بأنه ينتمي إلى دين من الأديان موجود عند المبدعين والنقاد وأصحاب النظريات الأدبية والنقدية ، ومؤرخي الآداب على السواء ، تجد هذا واضحاً ظاهراً حيناً ، ومستتراً خفياً أحياناً كثيرة ، تجده في عناوين الكتب والمقالات وما بين السطور ، وتجده في المفردات والتراكيب والصور والمجازات ، والمنطلق التصوري للمبدع والناقد .

وإذا كان من المعروف بدهاء أن التعبير الأدبي يجسد خصوصية الأديب وتصورات ورؤاه وأفكاره وأحلامه ورغباته ومشاعره وأحاسيسه - وهو في هذا يختلف عن التعبير العلمي - فإنه من الضروري أن تترك التصورات الاعتقادية - أي ما كان مصدرها - أثرها في هذا الإبداع ، وقد يكون هذا الأثر واضحاً وقد يكون خفياً ، وقد يكون مقصوداً وقد يكون غير مقصود ، ولا فرق في هذه التصورات الاعتقادية بين أن تكون راجعة إلى دين سماوي - صحيح أو محرف - أو دين وضعي أرضي ، أو فلسفة بشرية لا تدخل حوزة الأديان ، أو تصورات شعبية خرافية أو أسطورية ، عن المنشأ والمصير والوجود والحياة والكون والإنسان ؛ فكل هذا يشكل للإنسان اعتقاداً ما ،

لماذا إنكار الموقف ووجهة النظر في الأدب؟

(الأدب الإسلامي العربي) (٧). وما كتبه أيضاً عن (تطور الشعر الديني في الإسلام) (٨).

ومنها ما كتبه المستشرق الإنجليزي أربري عن : (الأدب الإسلامي الفارسي) (٩).

وفي النوع الثاني نقرأ على سبيل المثال ما جاء في كتاب «نظرية الأدب» الشهير «تقصي اتش. إن. فير تشايلد الميول الدينية في الشعر الإنجليزي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بأن صنف الكتاب بحسب حرارة مشاعرهم الدينية. وفي فرنسا استمد أبي بريوند من الأدب معظم مواد عمله الضخم «تاريخ الشعراء الدينية الفرنسية في القرن السابع عشر» (١٠).

وما أظن أنه يخفى على أحد الطابع الوثني للأدب اليوناني ؛ ذلك الطابع الذي صرف المسلمين الأوائل عن ترجمة هذا الأدب جملة وتفصيلاً ، مع أنهم ترجموا الكثير من التراث اليوناني العلمي والفلسفي ، ولأن هذا الأدب كانت له هيمنة علي آداب أوربا في العصور الحديثة فقد وجد من يتمرد على هذه الهيمنة ، ويرى فيها ضعفاً نشازاً في ظل هيمنة المسيحية على أوربا «ومن هنا ذهب شاتوبريان وفيككتور هوجو إلى أن الحضارة المسيحية يلائمها شعر ذو طابع مسيحي ؛ لأن من لوازم المجتمع أن يكون له أدب منسجم مع عقائده ، ومن هنا تحتم أن تحل العقائد المسيحية محل العقائد الوثنية التي كانت تصبغ الأدب اليوناني الوثني» (١١).

بل إن هناك من ذهب إلى أكثر من هذا ؛ فتولستوى كان يرى أن أعظم فن كان دائماً هو الذي يعكس الإدراك الديني لعصره (١٢).

ولا يظن أحد أن هذا اللون من الأدب الذي ينتسب إلى دين من الأديان ينحصر في أدب الموعظة والحكمة والزهد والشعائر والموت والآخرة مثلاً - وهو تصور شائع

عند كثير من الناس - ، إن القضية قضية تصورات وليست قضية موضوعات ، والتصورات تتسع لتشمل الوجود كله ؛ لا فرق في ذلك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ؛ فكل عقيدة من العقائد تشكل تصوراً عاماً منسجماً عن هذا الوجود ، وكلما اختلفت الاعتقادات اختلفت التصورات ، وقد يتسع الاختلاف وقد يضيق ، وقد تكون هناك مساحات مشتركة بين الاعتقادات المختلفة في تصورها لشيء ما . ومن هنا «حاول صاحب نظرية الأنواع الأدبية أن يكشف عن اختلاف النظرة الوثنية عند اليونان عن النظرة المسيحية في الشعر الفرنسي في عدد من موضوعات الشعر الغنائي ، مثل : الفرد - الحب - الموت - الأسرة - الطفل - الوطن - الإنسان - الطبيعة - وأخيراً الله» (١٣).

بل إن الأمر لا يتوقف عند التصورات وحدها برغم سعتها وشمولها ، وإنما يتجاوزها إلى اللغة والصور والمجازات - وهي جوهر الأدب - ؛ فهناك من حاول أن يربط بينها في الشعر وبين أصول دينية : «لكل مرحلة أسلوبية أشكالها البلاغية المميزة المعبرة عن نظرتها الشاملة» «وفي فترة الباروك كانت الأشكال المميزة هي ذكر المتناقضات والطباق واستعمال الكلمات استعمالاً خاطئاً (الحن بالكلمات) ، وهذه أشكال مسيحية صوفية» (١٤) ، وهناك من يرى أن «الأسطورة الدينية هي مصدر المجاز الشعري على نطاق واسع» (١٥).

وبغض النظر عن صواب هذا الكلام أو خطئه فإن أصحابه يرون أن انتساب الأدب إلى الدين لا يتوقف عند موضوعاته ومضامينه وتصوراته ، وإنما يتجاوزها إلى الصور والمجازات وطرائق التعبير المختلفة ، مع أن هذه أمور فنية خالصة يرى كثير من الناس أنها محايدة ، لا ترتبط بدين ولا عقيدة ، ولا موقف فكري .

الكوميديا الإلهية أدب كاثوليكي :

وإذا تركنا الكلام العام في نسبة الآداب إلى الأديان

الثقافة المسيحية تهطل برأسها حتى من عناونكم

لفكر النظري في القرن الثامن عشر» (١٩).

ومما يذكر أن إليوت قدم أعمال دانتي على أعمال شيللي وشكسبير لأن فلسفة دانتي بدت له أصح (٢٠) وفلسفة دانتي كانت لا هوتا كاثوليكية ، وهي التي تستند إليها الحقيقة الأدبية عنده (٢١) ، وكل أدب عظيم لا بد له من حقيقة يستند إليها .

وهكذا نرى أن الأستاذ فخري قعوار لم يكن يقف على أرضية صلبة وهو ينفي أن يكون هناك أدب من آداب العالم نسب إلى دين من الأديان ، أو أن تكون الكوميديا الإلهية لدانتي وصفت بأنها أدب مسيحي ، وهو الأساس الذي استند إليه في أنه لا يرى مسوغات لوجود أدب ينتمي إلى دين من حيث المبدأ .

أدب فخري قعوار بين الأيدلوجيا والدين:

ولماذا نذهب بعيدا ، أليس في أدب فخري قعوار نفسه ما يكشف عن تصورات الاعتقادية ، إيدلوجية كانت أو دينية ؟

يقول عنه الدكتور إبراهيم خليل - هو من أكثر النقاد كتابة عنه ومعرفة بأدبه - : «وهو في كل ما يكتبه يصدر عن موقف سياسي وإيدلوجي ، منحازا إلى الجماهير الكادحة» (٢٢) ، هكذا في كل ما يكتبه يصدر عن موقف سياسي وإيدلوجي ، وهذه الملاحظة بعينها سجلها الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله في أول مقال كتب عن فخري قعوار وهو يتحسس طريقه في عالم الأدب ، قال : « ليس كاتب هذه القصة غريبا عني ، قرأت له في مجلة «الأديب» مقالات وقصصا ، وعندما قرأت مقالته حسبت أنه تجاوز دور الشباب الغض على الأقل ، أتم دراسته في الاتحاد السوفيتي ، ففتن بفكرة العدالة والتقدم ، وانتصر للعمال والفلاحين وسائر الكادحين الذين ترتبط جذوري بجذورهم ، وأعجب بالأممية

وجئنا إلى قضية محددة ضربها الأستاذ فخري قعوار مثالا على ما يذهب إليه وهي «الكوميديا الإلهية» لدانتي ، فماذا نرى ؟ .

لقد ذهب إلى أنه لم يقل أحد إنها ملحمة مسيحية ، وهذا النفي لنسبتها إلى الأدب المسيحي كالنفي في الماضي بأنه لا يوجد أحد نسب الأدب إلى دين من الأديان ؛ فكلاهما لا يقوم على أساس .

فالكوميديا الإلهية ليست أدبا مسيحيا فحسب ، ولكنها على وجه التحديد - كما وصفها نقاد غربيون - أدب كاثوليكي ، فقد جسد هذا العمل العقيدة الكاثوليكية تجسيدا كاملا ، على عكس نظيرتها «الفردوس المفقود» لميلتون التي جسدت العقيدة البروتستانتية تجسيدا حيا (١٦) . وقد كان هناك من يرى أن الملحمة الحديثة لا ينبغي أن تتخلى عن التصور الوثني اليوناني ، ولكن بعض النقاد رفضوا هذا ، وذهبوا إلى أن الملحمة الحديثة تستفيد كثيرا من استبدالها العقائد المسيحية بالعقائد الوثنية ، «فإنه التوراة والإنجيل لا يمكن أن يقارن في سموه وجلاله بزيوس إله اليونانيين القدماء ، والملائكة والقديسون هم المثل العليا في الجمال لا يمكن أن يقارنوا في طهارتهم بتوابع الآلهة في الميثولوجيا ، وحتى الشيطان نفسه في عرف المسيحية له من الصفات والخواص ما يميزه عن بلوتون» (١٧) ولم يتوقف الأمر على المعاني المبثوثة في هذا العمل الكبير ؛ فالدكتور جبور عبد النور ألمح إلى أن دانتي ارتكز في بنيته للكوميديا الإلهية على العدد ثلاثة (١٨) ، والتثليث هو جوهر العقيدة الكاثوليكية ، أي أن بنية العمل الفني هنا تركز على أساس عقدي .

وتغلغل التثليث في بنية العقل والفكر في أوروبا أمر غير خاف ، يقول رينيه ويليك : «تعتبر التقسيمات الثلاثية في تاريخ نظريات الأنواع الأدبية من أهم التقسيمات ، ولقد حاولت الأنسة أيرنيه بهرنز أن تبين في أطروحتها الموثقة علم تصنيف الشعر (١٩٤٠) أن الثالث ما هو إلا نتيجة

التقدير لمن يطلب المحرفة .. ولكن !

والفكر العلمي» (٢٣).

ومعنى هذا أن الإيديولوجية التي ينطلق منها الأستاذ فخري قعوار مترسخة في تصوره ، ظاهرة في أدبه ، منذ خطواته الأولى وحتى الآن .

ولكن هذا التصور الإيديولوجي لم يطمس تصوراته الدينية العقدية ؛ فقد كانت الثقافة المسيحية تطل برأسها في بعض آثاره ، سواء في عناوين قصصه ومجموعاته كما في «أنا البطربرك» و«القندلفت» و«إضافات لسفر الرؤيا» و«شجرة معرفة الخير والشر» . . . وغيره ، أو كانت في الموضوع والمعالجة واللغة ، فالدكتور إبراهيم خليل يقول عن قصته «لا وقت للموت» : «لتقريب القصة من الواقع يجنح الكاتب إلى توظيف بعض ماثورات الثقافة المسيحية ؛ بدمج الأمثال والكنائيات الدارجة في نسيج القصة ، ولا سيما في الحوار» (٢٤) ، ويقول الأستاذ منذر شرار عن مجموعته «أنا البطربريك» : «أما النقطة التي تلفت النظر في المجموعة فهي استعمال فخري للموروثات الدينية والتاريخية ، كما في قصص «القندلفت» و«أنا البطربريك» و«بائعة الحليب» و«حبيبتى تغتسل بماء البحر» . وهذه النقطة يركز عليها فخري ، ليس في استعمال رموز «القندلفت» و«البطربريك» من النواحي الدينية - بل حتى في استعمال الحوار المأخوذ من نشيد الإنشاد في الإنجيل - وقد تكون خلفية فخري الدينية الأثر الكبير في هذه النقطة ، إلا أنني لست أراها نقطة سلبية ، بل العكس هو الصحيح» (٢٥) .

ولست أدري لماذا يتصور الأستاذ منذر أن استخدام رموز المسيحية ، واستعمال الحوار المأخوذ عن نشيد الإنشاد في الإنجيل يمكن أن تكون نقطة سلبية عنه أديب مسيحي ، ربي تربية مسيحية ، وتعلم في مدرسة مسيحية؟! إن هذا هو الوضع الطبيعي بالنسبة له ، وليس

هذا مما يعتذر عنه أو يتصور أنه نقطة سلبية في فنه .

وإذا كان الأمر على هذه الصورة فهل هناك ما يمنع أن ننسب هذه القصة أو تلك من قصص الأستاذ فخري قعوار إلى عقيدته الدينية أو مذهبه الإيديولوجي إذا كانت تجسد هذه العقيدة أو ذلك المذهب ؟ .

وإذا كان الأمر كذلك فهل يسلم معنا الأستاذ فخري أن نسبة الأدب إلى دين من الأديان أمر سائع ومقبول ، وأن مسوغات وجوده قائمة في أرض الواقع ؟

إن الأستاذ فخري قعوار كان يتكئ على شهادات النفي حينما ذهب إلى ما ذهب إليه من حيث المبدأ ، دون أن يكون معه دليل واحد على ما يقول ، فإذا أبطل الواقع هذه الشهادات بيسر وسهولة فقد بطل ما يقوم عليها ، ومن هنا يصبح الباب مفتوحاً أمام الأستاذ فخري ليسلم بوجود آداب تنسب إلى الأديان ، ويمكن أن تحتل مرتبة متميزة بين الآداب المختلفة ، كالملكة التي احتلتها الكوميديا الإلهية لدانتي ، وهي من الأدب المسيحي الكاثوليكي ، أو الفردوس المفقود لميلتون وهي من الأدب المسيحي البروتستانتي .

كلمة تقدير :

وأيما كان الأمر فإن كلمة الأستاذ فخري قعوار عن الأدب الإسلامي تستحق كل تقدير ؛ فهو بما فعل قد فتح الباب على صفحات الصحف الأردنية لتقدير حواراً عن الأدب الإسلامي ، وقد نشرت «الدستور» كلمة الدكتور عدنان علي رضا النحوي تحت عنوان : إلى الأستاذ فخري قعوار . . كلمة موجزة عن الأدب الإسلامي في ٤ / ٨ / ١٩٩٦ ، كما نشرت «الرأي» كلمة الأستاذ إبراهيم العجلوني تحت عنوان «في الأدب الإسلامي» في ٦ / ٨ / ١٩٩٦ . إلخ .

وهو يستحق التقدير أيضاً لأنه طلب أن يعرف ، وطلب المعرفة في حد ذاته أمر حسن ، فمن شأنه أن يفتح

بابا للحوار ، وأن يتيح الفرصة لمعرفة الآخر معرفة صحيحة ، بغرض النظر عن الاتفاق معه أو الاختلاف ، وقد كان في الندوات الثلاث التي أقيمت في الأردن (١٣، ١٤، ١٥ من ربيع الأول ١٤١٧هـ - ٢٩، ٣٠، ٣١ / ٧ / ١٩٩٦م) إجابات عن الأسئلة التي طرحها في كلمته ، وكان مقاله حاضرا في كل الندوات ، يشار إليه في الأسئلة والأجوبة إشارات صريحة ، ونرجو أن يجد فيما أهدي إليه من كتب الأدب الإسلامي ومجلته ما يجيبه على أسئلته التي طرحها في مقاله . أو التي دارت في خياله ولم يتسع لبسطها مقاله .

سؤال غريب :

غير أن هناك سؤالا لم يطرح علينا من قبل ، وما كنا نظن أنه يمكن أن يطرح في يوم من الأيام ، فقد طلب الأستاذ فخري قعوار - فيما طلب - من المستولين في الرابطة أن يقولوا لجمهرة الناس : إن كان مباحا لغير المسلمين أن يقرأوا أدبا إسلاميا ؟!

ولست أدري كيف يخطر ببال أحد أن تكون قراءة غير المسلمين للأدب الإسلامي مترددة بين الحظر والإباحة ؟!

إن رابطة الأدب الإسلامي العالمية ليست تنظيما حزبيا سرياً يطبع أدبه في نشرات سرية ، توزع على أعضائه في الخفاء بعيدا عن عيون الرقباء . وليست نصوص الأدب الإسلامي محفوظة في خزائن مغلقة ، مفاتيحها بأيدي سدنتها وكهانها ، ولا تخرج هذه النصوص إلا لتقرأ في الاجتماعات السرية الخاصة .

إن الأدب الإسلامي إبداعا وتنظيماً . . . يطبع ويطرح على العامة ، وليست هناك تنبيهات في أي مطبوعة من مطبوعاته بأنه يحظر على غير المسلمين أن يقتربوا من هذا الأدب أو يقرأوه .

إن الأدب الإسلامي أدب إنساني عالمي ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان متاحا للجميع .

وهو أدب إنساني لأنه يكتب للإنسان من حيث هو إنسان ، وهو يصور الإنسان ويعبر عنه ، ويلبي أشواق نفسه وروحه كما خلقه الله وفطره .

والإنسان في التصور الإسلامي خليفة الله في أرضه ، كرمه الله وأسجد له الملائكة ، وسخر له ما في السماء وما في الأرض . وميزه بالعقل والإرادة ، وجعله حرا مختارا في هذا الوجود ، ولم يميز أحدا على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . والإنسان هنا ليس شرقيا ولا غربيا ، ولا أحمر ولا أبيض ، إنه الإنسان كما خلقه الله وكفى ! ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً [الإسراء: ٧٠] .

هكذا ينظر الإسلام إلى الإنسان ، وهكذا ينظر إليه الأدب الإسلامي ، لأن هذا الأدب يستمد من الإسلام رؤيته وتصوراته .

وهو عالمي لأن هذا الإنسان بهذا التصور ليس ابن بيئة محددة ، ولا عرق معين ، ولا لسان خاص ، ولا لون مميز ، إنه الإنسان حيثما كان .

وما دام الإسلام قد جاء للناس كافة فإن الأدب الإسلامي يوجه للناس كافة كذلك ، وليس من المعقول أن يكتب الأدب الإسلامي للإنسان من حيث هو إنسان ويحرم منه أحد بحجة معينة ، كاختلاف الأديان ، أو اختلاف اللسان ، أو اختلاف الأشكال والألوان ، أو اختلاف الأعراق والأوطان .

إن نصوص الأدب الإسلامي ودراساته تنشر الآن بأكثر من لغة ، ومن أهمها : العربية والأردية والتركية . وهناك محاولات تجرى لترجمة بعض نصوصه إلى لغات أخرى غير إسلامية كالإنجليزية والفرنسية ، وهناك رسائل تأتينا من غير المسلمين ومن غير العرب أيضاً ، ويأتيها صحفيون وباحثون جامعيون لإجراء حوار ، أو للإجابة

وإذا كتب الأديب المسلم للطفل قصة خروج بني إسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام فسيكون قلمه جندياً من جنود موسى، ومن آمن معه، ولا يمكن أن يكون مع فرعون؛ من منطلق وطني أو قومي أو عرقي، فيصوره بطلاً وطنياً خلص مصر من الدخلاء!! .

وإذا كتب عن طالوت وجالوت فسيكون قلمه مع الأول حتى ولو كان من سكان عين جالوت.

ولن تجد في أدب الأطفال الإسلامي إلا انتصاراً لقيم الحق والعدل والخير وكرامة الإنسان من حيث هو إنسان.

وهو أدب ينبغي أن يقرأه الطفل المسلم والطفل غير المسلم على السواء، لأنه يعزز في النفوس القيم الإنسانية الرفيعة، وهذا أفضل من أدب آخر يحتمي بحرية التعبير - المظلومة - فيمس مكانة الأنبياء والمرسلين، ويخوض في أعراضهم وأغراضهم، ولا يرفع حرمة لعقيدة ولا لتاريخ ولا لثراث، ويصور تاريخ الأولين من الأنبياء والمرسلين وأقوالهم على أنه أساطير الأولين، فأبي الأديين أحق بأن يقرأه الطفل العربي بغض النظر عن عقيدته؟ وأيهما يمكن أن يحدث الانشقاق في الأمة؟

فليقرأ الأستاذ فخري قعوار من الأدب الإسلامي ما استطاع أن يقرأ، ولن يجد منا إلا الشكر والتقدير لهذه القراءة ومحاولة معرفة الآخر.

تفاوت مستويات الإبداع :

لكنني أحب أن أنبه إلى شيء مهم لمن يقبل على قراءة الأدب الإسلامي رغبة في الاطلاع والمعرفة والاستمتاع بالأدب الرفيع النظيف.

إن الأدب الإسلامي شأنه شأن أي أدب آخر يتفاوت فيه المبدعون، فقد تجد فيه النصوص العالية المحلقة، وقد تجد الشدة على أول الطريق، ومنهم من يواصل، ومنهم من يتعثر، وقد تجد بين هذين الحدين عشرات من المستويات المتفاوتة، بل إن التفاوت قد يحدث في نتاج الأديب الواحد، فالنص الأدبي الذي ينتسب إلى الإسلام كالإنسان الذي ينتسب إليه؛ الأفذاذ فيهم معدودون،

عن استفسار حول الأدب الإسلامي، ويحضر ندواتنا غير المسلمين، ويشاركون بالحوار والأسئلة كما حدث في ندوة الأدب الإسلامي في جامعة أكسفورد، وفي بعض الندوات في الأردن، والتي كان مقال الأستاذ قعوار من نتائجها، وهذا يسعدنا كثيراً، لأنه يتيح لنا أن نوضح للناس ما يمكن أن يكون قد التبس عليهم. وقد حدث منذ سنوات في إحدى الندوات أن أبدي أديب مسيحي يكتب قصصاً للأطفال تخوفه من شيوع أدب الأطفال الإسلامي، لأنه سيعترب عليه في نظره أن ينقسم وجدان الأطفال في الوطن الواحد؛ فهؤلاء يتلقون أدباً وأولئك يتلقون أدباً مغايراً، ومن هنا يختلف تشكيل الوجدان، وقد يترتب على هذا انشقاق في النفوس، وخوف من الآخر وتوجس منه، وربما ترتب على هذا ظهور نزعة عدوانية نحو الآخر المغاير في الدين، وفي هذا من الخطر ما فيه.

وقد قلت لهذا الأديب : إن أدب الأطفال الإسلامي ليس أدباً طائفياً، ينشئ أبناء على العزلة والانطواء والخوف من الآخر والحذر منه، وليس أدباً عنصرياً يربي أبناء على الاستعلاء والكبرياء واحتقار الآخر، إنه أدب إنساني إسلامي يستمد تصوره من مشكاة الإسلام، ولن يكتب أديب الأطفال الإسلامي ما يمكن أن يخدش مشاعر الآخر ولا أحاسيسه، أو ينقص من قيمته وقدره، فإذا كتب قصة عن عيسى عليه السلام فلن يصوره إلا في أفضل صورة، إنها الصورة التي جاءت في القرآن الكريم على لسانه : ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ [مريم ٣٠-٣٣] وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم عليها السلام، وهي أيضاً لن يقدمها الأديب الإسلامي إلا في صورة سيدة نساء العالمين ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ [آل عمران: ٤٢].

الأدب الإسلامي عن هذه السنن .

لكن إن أراد الأستاذ فخري قعوار أن يتعرف على المثل الأعلى للأدب الإسلامي والنماذج العليا فيه فليقرأ القرآن الكريم ذلك النص المعجز الذي ارتفع بطرق التعبير والأداء والتصوير إلى درجة لم تبلغها لغة من قبل، ولن تبلغها لغة من بعد، وهذه هي طبيعة الإعجاز، إن هذا الكتاب الكريم هو مصدر التصورات الصحيحة للأديب المسلم، وهو في الوقت نفسه المصدر الأول لطرق الأداء والتعبير والحوار والرموز الإسلامية والنماذج البشرية .

ومن الممكن أيضا أن يقرأ النماذج العليا للتعبير البشري في الحديث الشريف، وهو من القرآن الكريم بمنزلة القمر من الشمس؛ يدور حولها، وينجذب إليها، ويستمد منها نوره .

وفي النهاية نقول للأستاذ فخري قعوار شكرا . لأنه أتاح لنا الفرصة لهذا الحوار الذي نرجو أن يكون مثمرا ومتصلا، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل .

والأوساط هم السواد الأعظم، إنك إذا رحت تحصي القمم في تاريخ الإسلام - أو في أي تاريخ - فستجدهم معدودين في كل عصر، فكم شخصا في الإسلام في طبقة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو حمزة أو خالد أو عمر بن عبد العزيز أو الشافعي أو مالك أو أبي حنيفة أو أحمد بن حنبل أو صلاح الدين . . . إلخ، وكم ألفا يقابل كل واحد من هؤلاء ممن لم يتركوا في الحضارة أثرا كبيرا ولم يسمع بهم أحد، وذهبوا كما أتوا، وكلهم مسلم قد أدى ما عليه في حدود طاقته .

وهكذا شأن النصوص في الأدب الإسلامي إن القمم فيها قليلة، والأوساط هي الأكثرية، ولا يضير الأدب الإسلامي في شيء أن يكون فيه هذا وهذا، ففي كل أدب تجد فيه هذا وهذا؛ فكم عملا في الأدب الكاثوليكي في طبقة الكوميديا الإلهية؟ وكم عملا في الأدب البروتستانتي في طبقة الفردوس المفقود، وكم عملا في الآداب الوثنية في طبقة الملاحم اليونانية؟ .

إن التفاوت الكبير من سنن الله في خلقه، ولن يخرج

الهوامش :

- (١٢) السابق ص ٦٨ . وانظر النقد الفني - جيروم ستولنيتز - ترجمة د. فؤاد زكريا ص ٥٢٦ مطبعة جامعة عين شمس بمصر ١٩٧٤ .
- (١٣) كتابنا السابق ص ٦٨ ، وانظر : نظرية الأنواع الأدبية - ترجمة د/ حسن عون ص ١٣٧ - ١٤٧ - منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٨ .
- (١٤) نظرية الأدب - مرجع سابق ص ٢٥٥ .
- (١٥) السابق ص ٢٤٨ .
- (١٦) الأدب الإسلامي ضرورة - مرجع سابق ص ٦٩ .
- (١٧) السابق ص ٧٠ ، ٧١ ، وانظر : نظرية الأنواع الأدبية - مرجع سابق ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ .
- (١٨) المعجم الأدبي ص ٣٨٧ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٤ .
- (١٩) رينيه ويليك - مفاهيم نقدية ص ٣٩٠ ترجمة د. محمد عصفور، عالم المعرفة - الكويت ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .
- (٢٠) نظرية الأدب - مرجع سابق ص ٣٨ ، ١٤٧ .
- (٢١) السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .
- (٢٢) د. إبراهيم خليل - فخري قعوار - دراسة في فنه القصصي ص ٧٨ دار الكرمل - الأردن ١٩٩٦ .
- (٢٣) فخري قعوار - ثلاثون عاما من الإبداع - مرجع سابق، ص ٣٠٢ .
- (٢٤) السابق ص ٤٥ ، فخري قعوار - دراسة في فنه القصصي - مرجع سابق ص ٢٨ .
- (٢٥) فخري قعوار - ثلاثون عاما من الإبداع - مرجع سابق ص ٣٤٩ .

- (١) فخري قعوار - ثلاثون عاما من الإبداع ص ١٧٨ منشورات رابطة الكتاب الأردنيين ١٩٩٦ .
- (٢) نجيب العقيقي - المستشرقون ٤٦٩/٣ ط . رابعة - دار المعارف بمصر ١٩٨٠ .
- (٣) السابق ٤٦٤/٣ .
- (٤) نفسه ٤٤٠/١ .
- (٥) عبد الرحمن بدوي - موسوعة المستشرقين ص ١٠٢ ط . ثالثة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٣ .
- (٦) دائرة المعارف الإسلامية - الطبعة العربية ١٢٣/٢ دار الشعب - مصر .
- (٧) عبد الرحمن أيوب (مترجم) - الشرق الأدنى - مجتمعه وثقافته ص ٧٥ وما بعدها - مصر .
- (٨) المستشرقون - مرجع سابق ١٧١/٣ .
- (٩) الشرق الأدنى - مجتمعه وثقافته - مرجع سابق ص ١٠٩ وما بعدها .
- (١٠) رينيه ويليك وأوستن وارن - نظرية الأدب - ترجمة محيي الدين صبحي ص ١٤٩ .
- (١١) انظر كتابنا الأدب الإسلامي ضرورة ص ٦٧ رابطة الجامعات الإسلامية ودار الصحوة ١٤١١ - ١٩٩١ .